قضايا ثقافية

الحرية والايزوتيريك

كم تحزنني كلمة حرّية. إراها حورية سُحبت من شعرها الجميل و «الطويل حتى الينابيع». (بالاذن من انسي الحاج) حورية سُحبت ومرّغت في وحول الجهل، والمحدودية، والانية. طبعاً، هذا مجرد تشبيه اوحى به تشابه حروف الكلمتين والسحر الذي يلازمهما، فالحرية كما الحورية، لم يُعطها انسان ليأخذها، ولا يقدر انسان ان يأخذها فيعطيها.

من هي هذه الجنيّة المختبئة دوماً في التوق اليها؟ أتكون غير حالة شعورية، فكرية روحية؟ ومن هو ذلك الذي بامكانه تقييد او اطلاق ما هو حالة شعورية، فكرية، وروحية سوى الساحر الابيض الذي اسمه الوعي يتّسع فتبتعد الحدود يضيق فتهجم!

والوعي، ما هو إن لم يكن حرية، الحرية التي تتعدّى حتى حدود الاختيار، فالاختيار حدود والوعي والحريّة لا حدود لهما ولا سدود في معناهما الاخير الاخير، وما طريقهما الاّ الحقيقة...

يقول الايزوتيريك (علم الذات الخفيّة) : «الانسان مُسيّر في ما يجهل مخيّر في ما يعلم». إذن هنا تكمن الخطوة الاولى نحو وعي الحرية ـ الحالة المثلى للانسان. الخطوة او الخطوات الاولى هي، انطلاقاً من هذا القول الايزوتيريكي، هي في توسيع وتمديد كون الانسان مخيّراً وذلك يتحقق بالمعرفة وبتطبيق المعرفة عملياً لتغدو حكمة... صحيح ـ معرفة الانسان لما حوله ضرورية، لكن المعرفة الاسمى التي توصل، بالنتيجة الى كل معرفة، هل تكون غير معرفة الذات؟ وما المقصود بكلمة «الذات»؟ هل هي حلقة الوصل بين النفس البشرية الدنيا والذات الالهية؟!

اذا كانت النفس البشرية هي العبودية او مصدر العبودية، والذات الالهية هي الحرية المطلقة، تكون الذات الانسانية هي الحرية الكامنة، ومعرفة هذه الذات هي الحرية الانسانية المحققة.

هنا ايضا نقع في صعوبة التعبير لاننا في الحرية لكن دون وعي منّا ـ مما يؤكد على ضرورة الوعي الذاتي لنعي حريتنا ونعيشها ولو كنّا وراء القضبان على انواعها، فالقضبان لا تقف حائلاً دون حالة شعوريّة، فكرية، وروحيّة واعيةً لذاتها...

الكثير الكثير يندرج تحت عنوان الوعي الذاتي. اقلّه معرفة مكوّنات الداخل او الباطن الانساني ـ تلك المكوّنات الذبذبية الشفافة التي لا يظهر في الجسد المادي الاّ بعض نتائجها، وبالتقسيط، فكأنها تسخر من ادّعاء الانسان الباطل بالحريّة وهو لم يصل بعد الى معرفة حقيقة مكوناته فيسيرها بدل ان تسيّره ويطلق قواها الغافلة وبذلك يحقق حرّيته.

في كتابه «رحلة في مجاهل الدماغ البشري» الصادر عن منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء، يقول مؤسس معهد الايزوتيريك، جوزيف مجدلاني: «هذا هو الانسان: جسد وروح وبينهما عدة مكوّنات باطنية خفيّة، او عدة ابعاد وعي في وجود واحد! لكنّه قادر على الانطلاق في كلّ هذه الابعاد معاً، مزامنة».

فهل يكون تحقيق هذا الانطلاق المتزامن هو الحرية المنشودة؟ وما هو السبيل الى ذلك؟

الاكيد انه في عالمنا المحكوم منطقاً وفعلاً وحقيقة بالازدواجية في وجوده الادنى، وبالثنائية على المستويات الاعمق والاشفّ، لا تتحقق الحرية الا بوجهها الآخر ـ في بدايات الطريق على الاقل ـ وذلك يعني بالتقييد، فالحرية قد تكون في تقييد الادنى بسلاسل ما هو اعلى. فالحب الجسدي، مثلاً، غريزي، يصير اعلى درجة اي «اكثر حرية» عندما تسيطر عليه العواطف والمشاعر الانسانية و «تقيّده» بسلاسل من معدن اثمن من معدن الجسد ان لم نقل اعلى درجة واكثر شفافية في تراتبيّة الاجسام الباطنية او مستويات الوعي التي تؤلف الكيان البشري. وكذلك ان سيطر العقل، او رمى بظلّه، او قيّد بسلاسله التي هي من معدن ايضا اثمن، ان قيد بمعنى سيطر على العاطفة والجسد معاً، فان الحب يتسامى ويصير اكثر حرية، ان جاز التعبير. فكيف بكلّ هذه المستويات ان رمت الروح بظلّها عليها وقيّدتها بسلاسلها النورانية محوّلة اياها الكيمائيا الى محبة، اسمى المشاعر الانسانية. فقد يكون في مثل هذه العمليات تقريب لتلك المكوّنات اللامرئية لتحقيق الانسجام بينها، ولاستعمال مقدراتها الباطنية ايجابياً، وللانطلاق في كل هذه الابعاد معاً، مزامنة». وقد تكون هذه هي الخطوة الاخيرة في رحلة الانسان نحو ذاته العليا حيث الحرية، وتكون في الوقت ذاته الخطوة الحقيقية الاولى في سفر الانسان الواعي والحر نحو المطلق، مصدر الحرية، حيث تقفل الدائرة ويمتد من نقطة الاقفال تلك على محيطها الى النقطة في داخلها طريق ربما تكون البداية لرسم دائرة ارقى واوسع. فلا حدود للتطور ولا نهاية منظورة للارتقاء، فهما ملازمان للوعي، ونبض الوعي حرية!

فلنرحم الحرية ولنحرر الحرية في ذات الفرد اولاً لتتحقق جماعياً ونغتبط.

أ. حيّان